صورة الإسلام في علم الاستشراق الهولندي المعاصر

بقلم: د. التيجاني بولعوالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي الجديدة ـ المغرب

ملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تنسلك ضمن المنحى الداعي إلى استثمار جهود المؤسسات الجامعية والعلمية الأوروبية، قصد تصحيح الصورة النمطية التي تكونت لدى الكثير من الأوروبيين والغربيين حول الإسلام، باستخدام الآليات اللغوية والبحثية والتواصلية التي تستخدمها تلك المؤسسات نفسها، وهو أمر يستدعي كل العناية، وبخاصة في ظل التحديات الخطيرة التي فرضتها الأحداث المتكررة في باريس وبروكسل... وغيرها، والتي عمقت وعممت فهما وصورة غير صحيحة عن الإسلام والمسلمين.

Résumé :

Cette étude tente d'être incluse dans la tendance qui appelle à l'investissement des efforts des institutions universitaires et scientifiques européennes, afin de corriger le stéréotype formé chez un grand nombre d'Européens et d'Occidentaux sur l'islam, en utilisant des mécanismes linguistiques, de recherche et de communication utilisés par ces institutions mêmes, ce qui nécessite tous les soins, en particulier à la lumière des défis sérieux posés par les événements récurrents à Paris et à Bruxelles ... etc., qui ont approfondi et généralisé une compréhension et une fausse image de l'Islam et des musulmans.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الاستشراق الهولندي، صورة الإسلام، الغرب، المؤسسة البحثية في الغرب.

مقدمة: تندرج هذه الدراسة في إطار البحث في ثنائية الإسلام والغرب؛ إذ عشت وعايشت مختلف التقلبات الاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية والاقتصادية التي شهدها الواقع الأوروبي عامة، والسياق الهولندي خاصة، منذ أواخر القرن الماضي. وتعتبر نظرة الإنسان

الأوروبي الأصل إلى الآخر؛ أي المهاجر، الجنوبي، الأجنبي، المسلم...إلخ، من الأمور التي لم تسلم من تأثير تلك التقلبات المحلية والعالمية، وقد تجلى ذلك واقعياً في شتى الممارسات، وعلى مختلف المستويات والصعد؛ كالقانون والسياسة والإعلام والتعليم وغيرها؛ حيث تضافرت المواقف والتصريحات وردود الأفعال لتنسج، حسب مقاساتها ومعاييرها، الصورة التي تريدها للإسلام والمسلمين. وفي الحقيقة، هي صورة مغلوطة في الكثير من ملامحها، تنبني على الأحكام المسبقة والأفكار النمطية.

أمام هذا الوضع المتردي الذي صارت إليه صورة المسلمين في الغرب، ظهرت الكثير من المبادرات من كلا الطرفين: الغرب والمسلمين، تبحث في الأسباب العميقة التي تقف وراء ما يحدث، وتدعو إلى تصحيح هذا الوضع الذي قد يلحق الضرر بالجميع؛ مسلمين وغيرهم. وقد استجلى الكثير من الخبراء والباحثين في قضايا الإسلام والغرب أن أغلب الإشكالات التي تتخلل علاقة المسلمين بغير المسلمين في الغرب عامة، وفي أوروبا خاصة، متولدة بالدرجة الأولى عن الجهل المتبادل بين هذين الطرفين، وغياب المعرفة العلمية لديهم حول بعضهما البعض، مما يعمق الفجوة بين مختلف مكونات المجتمعات الغربية، ويزرع بذور التنافر بينها، فتُنتج الخوف والكراهية والعنف، بدلاً من التسامح والمحبة والتعايش.

ومن أجل تجاوز هذه المرحلة المحكومة بالحرب النفسية والتوتر، يتحتم تصحيح نظرة كل طرف إلى الطرف الآخر؛ نظرة الغرب إلى المسلمين والعكس كذلك. وثمة العديد من المجالات التي يمكن أن تستثمر لتحقيق هذا المقصد، كالمجال الأكاديمي (المؤسسات الجامعية والمراكز العلمية والبحثية الغربية)، لكونها تشكل حقلاً خصباً يزخر بمختلف الإمكانات التي تحفز على التعارف بين سائر مكونات المجتمع، ويتيح العديد من فرص النقاش والحوار والتلاقي الحضاري.

غير أنّ هذا المعطى العلمي لم يُستثمر بعد بشكل عقلاني من قبل المسلمين في أوروبا والغرب، للتعريف الموضوعي بحقيقة الدّين الذي يؤمنون به، والرد الهادئ على حملات

الإساءة التي يتعرض إليها الإسلام والمسلمون. لذا، فإن هذه الدراسة تحاول أن تتجه في هذا المنحى الداعي إلى استثمار جهود المؤسسات الجامعية والعلمية الأوروبية، قصد تصحيح الصورة النمطية التي تكونت لدى الكثير من الأوروبيين والغربيين حول الإسلام، باستخدام الآليات اللغوية والبحثية والتواصلية التي تستخدمها تلك المؤسسات نفسها.

علم الاستشراق بين القبول والرفض:[1]

إن الحديث عن علاقة الجامعات والمؤسسات الأكاديمية الأوروبية بالإسلام، يحيل مباشرة على علم الاستشراق، الذي ظل الشرق عامة، والإسلام خاصة، موضوعه الجوهري طوال قرون عديدة. من هذا المنطلق التاريخي، يمكن وضع جملة من الأسئلة الجديدة بخصوص هذا العلم القديم؛ هل يتعلق علم الاستشراق بالدراسات التقليدية التي انكبت على الشرق القديم والعالم الإسلامي فحسب، أم أنه يتجاوز ذلك إلى الأبحاث الحديثة والمعاصرة التي اهتمت بمختلف قضايا الشرق والإسلام السياسية والاقتصادية والثقافية واللغوية وغيرها؟ ما يشير، بشكل أو بآخر، إلى أن علم الاستشراق لم يتوقف، رغم التحولات العميقة التي طرأت على علاقة الغرب بالشرق، فتحررت الدول والشعوب التي كانت هدفا للدراسات الاستشراقية، من قبضة التسلط الأوروبي، وإنما ازداد اهتمام الباحثين والمبدعين والسياسيين والإعلاميين الغربيين أكثر بالعالمين الشرقي والإسلامي، فهل يعني هذا أنه يمكن الحديث عن علم استشراق معاصر؟ ثم ما موقع المؤسسات الجامعية والبحثية الأوروبية والغربية، التي تشتغل على قضايا الإسلام والمسلمين داخل الغرب وخارجه، من علم الاستشراق؟ هل تعتبر جزءا لا يتجزأ منه أم أنها مفصولة عنه؟

[1] تمت مناقشة هذه المسألة بتفصيل في كتابنا: **صورة الإسلام في المقاربة الأكاديمية الأوروبية**، ط 1(دبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2013).

إن الإجابة عن جانب من هذه الاستفسارات المشروعة، تقتضي منا تحديد مفهوم علم الاستشراق، وهو في الحقيقة يعد من بين أكثر العلوم، التي تناولها الباحثون من مختلف الحيثيات والمستويات، غير أن ما يُهم في هنا هو مدى استجابة الطرف الإسلامي–وهو موضوع الاستشراق– لطبيعة الصورة المنسوجة حوله، من قبل التيارات الاستشراقية الأوروبية والأمريكية. بمعنى أوضح، هل أفلح علم الاستشراق في صياغة شرق يتطابق والشرق الواقعي المعيش المنظور، أم أن ذلك الشرق الذي يقدمه الفكر الغربي، كما–يستنبط إدوارد سعيد– ليس حقيقة خاملة من حقائق الطبيعة، وإنما مجرد فكرة ذات تاريخ وتراث من الفكر، والصور، والمفردات التي أسبغت عليه حقيقة وحضورا في الغرب ومن أجل الغرب.[2] وهذا الرأي لا يخص صاحب كتاب **الاستشراق** وحده، وإنما يسود لدى أغلب الباحثين والمفكرين العرب والمسلمين، الذين ينظرون إلى هذا العلم بعين الريبة والتحفظ، وقلما نصادف موقفا يتماهى مع الدراسات الاستشراقية التقليدية بخاصة.

ولئن كانت تبدو الدلالة الاصطلاحية للفظة الاستشراق عادية، تعني ذلك العلم الذي يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم،[3] وهذا في الحقيقة تحديد شامل، يقابله تحديد خاص يربط علم الاستشراق بمختلف الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية والعقدية والتشريعية والحضارية المتعلقة بالشرق الأوسط، ويطلق على أصحاب تلك الدراسات المستعربون.[4] ولئن كان الأمر كذلك، فإنه على مستوى التوظيف غالبا ما كانت تتلبس تلك الدلالة الاصطلاحية بما هو أيديولوجي وسياسي، فيحيل الاستشراق على الغزو الغربي للعالم العربي والإسلامي، ولا يعدو أن يعني لدى السواد الأعظم

[2] إدوارد سعيد، **الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء**، تر: كمال أبو ديب، ط7 (بيروت:مؤسسة الأبحاث العربية،2005)، ص 40.

[3] عبد الجبار ناجي، **تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي**، (بغداد:1981)، ص 23.

[4] المصدر نفسه، ص 13.

من المسلمين إلا تلك الدراسات الأوروبية التي مهدت الطريق للآلة الاستعمارية الغربية. يقول عبد القادر طاش "وانتقلت مسيرة الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والعرب في العقل الغربي إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الغزو الاستشراقي الذي عمل على تهيئة المناخ الملائم والأرضية الصالحة لتحقيق أهداف الغزو الاستعماري العسكري على البلدان العربية والإسلامية. وتعد حركة الاستشراق واحدة من أهم وأخطر القنوات التي أسهمت في تكوين الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والعرب وترسيخها في تلافيف العقل الغربي الفردي والجماعي".[5]

وعلى المنوال نفسه، تمضي إحدى الدراسات التي أصدرها مركز الإمارات للبحوث والدراسات الإستراتيجية، المعنونة بـ: مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، قسم فيها صاحبها القراءة الغربية الاستشراقية للتاريخ الإسلامي إلى ثلاث دوائر تاريخية، أطلق على أولها دائرة "التراكم العدائي المغلوط"، وهي تبدأ منذ بزوغ الإسلام مرورا بالفتوحات الكبرى وانتهاء بتضعضع الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، وقد سيطرت على الكنيسة في هذه المرحلة عقدة المسلمين، الذين كانت ترى فيهم خطرا على المسيحية وعلى العالم برمته. أما ثاني تلك الدوائر فقد سماها مرحلة الإرث الاستعماري، وبدأت مع إرهاصات انهيار الدولة العثمانية، وقد تمكنت المدرسة الاستشراقية في هذه المرحلة من أن تضع وعاء احتوى على خبراء في مختلف الحقول المعرفية والعلوم الإنسانية، لخدمة الأطماع السياسية والتوسعية الغربية نحو العالم العربي والإسلامي. أما الدائرة التاريخية الثالثة، فتؤرخ ببزوغ الدولة الحديثة في العالم الإسلامي بعد سقوط الدولة العثمانية، ويسميها الباحث دائرة

[5] عبد القادر طاش، **صورة الإسلام في الإعلام الغربي**، ط2 (الزهراء للإعلام العربي، /1414هـ -1993)، ص 51.

"الاستعمار والانطلاق نحو العالمية"، وتتميز بتقديم أنموذج للمجتمعات العربية والإسلامية يحاكي أنموذج التجربة الغربية[6].

ولعل رؤية المفكر العربي إدوارد سعيد حول موضوع الاستشراق تعد من بين أهم الرؤى العالمية، التي استأثرت باهتمام مكثف من قبل الباحثين والأكاديميين الغربيين، ككورنياتريفليتشوبيجايكومار داس وماتيوسفيكيري وبريان تيرنر وغيرهم كثير.

في كتابه الاستشراق، ما بعد الحداثة والعولمة يستخلص السوسيولوجي البريطاني الأسترالي بريان تيرنر أن علم الاستشراق يتخذ عند إدوارد سعيد ثلاثة أبعاد منفصلة؛ يعتبر في أولها بمثابة طريقة للتفكير استنادا إلى نظرية المعرفة وعلم الوجود خاصة الذي يميز تمييزا عميقا بين الشرق والغرب. ويتخذ في البعد الثاني طابعا أكاديميا محضا، حيث ينبني الاستشراق على مجموعة من التخصصات والمؤسسات والأنشطة، التي عادة ما ترتبط ببعض الجامعات الغربية المشهورة التي انكبت على دراسة الشرق. وفي البعد الثالث يمكن النظر إلى الاستشراق بكونه مؤسسة قائمة بذاتها تعنى في المقام الأول بالشرق.[7]

وهذا يعني عدم اختزال علم الاستشراق فقط في البعد العدائي والاستعماري؛ حيث "الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وتدريسه، وامتلاك السيادة عليه"[8]، بل وتُضاف إليه أبعاد أخرى، كالبعد الجامعي إذ يُطلق اسم المستشرق على كل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه، ويسري ذلك على المرء سواء أكان مختصا في علم الإنسان، أم في علم الاجتماع، أم مؤرخا، أم فقيه لغة. والبعد التخييلي حيث ينبني

[6] محمد عبد الله يوسف سهر، **مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين**، ط1 (دبي: مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية،2001)، دراسات استراتيجية، ع 57، ص ص 8– 25.

[7] Turner, S. Beryan, ***Orientalism Postmodernism and Globalism***, (Routledge- London, 1e/1994), p. 96

[8] إدوارد سعيد، **الاستشراق**، ص 39.

الاستشراق على التمييز الوجودي والمعرفي بين الشرق والغرب، بوصفه نقطة الانطلاق لسلسلة من النظريات والملاحم والروايات والأوصاف الاجتماعية والمسارد السياسية التي تتعلق بالشرق.[9]

على هذا الأساس، فعلم الاستشراق ليس موحدا، وهذا يعني أنه لا يرتكز على منطلقات موحدة، ولا يسعى إلى تحقيق أهداف موحدة، لا سيما وأننا أمام "استشراقات" متنوعة، سواء تعلق الأمر بالجانب الجغرافي، أم بالجانب التاريخي، أم بالجانب الإيديولوجي؛ فعلى المستوى الجغرافي يمكن التفريق بين الاستشراق الفرنسي، والاستشراق البريطاني، والاستشراق السوفييتي، والاستشراق الهولندي، والاستشراق الأمريكي وغير ذلك، وهناك من الباحثين من يرى أنعلم الاستشراق ظل في القرنين التاسع عشر والعشرين يتحدد من خلال ما هو جغرافي؛ حيث المستشرق هو كل من يكتسب معرفة علمية حول منطقة معينة، لا تقتصر على ما هو جغرافي وتاريخي وأثري، وإنما تتعداه إلى علم اللغة والأدب ومعرفة الشعوب. باختصار، يسعى علم الاستشراق إلى دراسة الحياة الاجتماعية والثقافية لمنطقة ما بكل حيثياتها وفي الزمن الحاضر.[10]

أما على المستوى التاريخي فينقسم الاستشراق إلى ما هو قديم، وما هو حديث، وما هو معاصر، في حين أنناستطيع التمييز على المستوى الأيديولوجي بين الاستشراق السياسي الاستعماري، والاقتصادي، والفكري، والأدبي، واللغوي وما إلى ذلك. مما يرد الرأي الذي يختزل علم الاستشراق فقط في حملات الغزو الأوروبي والغربي للعالم العربي والإسلامي، ويلغي من ذاكرة التاريخ الإنساني العديد من المفكرين الغربيين، الذين تناولوا الشرق بتجرد علمي وروح موضوعية، أثْرَوا بعطائهم الفكري وإسهامهم المعرفي مختلف الحقول العلمية والفنية

[9] المرجع نفسه، ص 38.

[10] Uhlenbeck, E., "*Perspectief der Nederlandse oriëntalistiek"*, Bijdragen tot de Taal-Land- en Volkenkunde, 123 (1967), no: 2, Leiden, p.211

والمعرفية الإسلامية، في زمن كان يعمه الانحطاط والتقهقر، بل وهناك من المستشرقين الغربيين من قادهم البحث في التراث الإسلامي إلى الاقتناع التام بحقيقة هذا الدين ومن ثم الدخول فيه، كالسويسري جون لويس بوركهارت، والإنجليزي مارمادوك وليم بكثول، والألماني فريدرشكرنكوف، والفرنسي روجيه جارودي، والهولندي عبد الواحد فان بوميل وغيرهم كثير.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى نقاش لافت حصل بين المفكر الإسلامي محمود حمدي زقزوق والمستشرق الألماني اسطفان فيلد، إذ نشر زقزوق مقالة بعنوان "ما يقال عن الإسلام" في مجلة الفكر الإسلامي البيروتية، وقدمت هيئة تحرير المجلة تلك المقالة بالعبارة التالية: "للدراسات الاستشراقية هزة إعجاب لدى الكثيرين، لما يرون منها من منهجية دقيقة، وغزارة في الاطلاع وجدة في الاستنتاج، بيد أن للأمر وجهين، فالمستشرقون مهما بلغت بهم دقتهم العلمية غرباء عن هذه الأمة في دينها وحياتها ومواطن اعتزازها، وفي أعماقهم من رواسب العداوة بين الإسلام والاستعمار قديمه وحديثه ما يؤدي بهم إلى الكثير من الشطط، والبعد عن مقتضى الحقيقة النزيهة"[11]. وقد أثارت هذه العبارة المستشرق الألماني اسطفان فيلد، فرد عليها بمقالة معترضا على ما ورد فيها، وهو يقول: "قرأت هذه الجملة بشيء من الحزن والأسف لأنها تسيء إلى حد ما إلى قضية الاستشراق وقضية التعاون بين الجهود العلمية العربية من جهة وغير العربية من جهة أخرى"، ويستطرد قائلا: "فلنعترف أولا أن الكثير من المستشرقين أخطأوا في الكثير مما كتبوا"، "كل هذا صحيح وعلى المستشرقين الاعتراف بذلك قبل غيرهم، والأقبح من ذلك أن توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة"، "ولكن-وإن صح

[11] محمود حمدي زقزوق، **الإسلام في الفكر الغربي** (عرض ومناقشة)، ط 3 (الكويت: دار القلم، 1406-1986)، ص 58.

القول- أن الكثير من المستشرقين أخطأوا في بعض المواضيع. فهذا لا يعني أن يصدر حكم عام على جميع المستشرقين، فهذا حكم غير عادل وغير جاد، إنه قول فضفاض".[12]

هذا يدل على أن صورة الإسلام تختلف من مستشرق إلى آخر، ومن مدرسة استشراقية إلى أخرى، لذلك لا ينبغي أن نضع الجميع في سلة واحدة! لقد وعى المفكر العربي فهمي جدعان هذه المسألة عندما ذهب إلى أنه لا يمكن التسليم بأن الغرب برمته يجهل الإسلام، فـ "حين يتعلق الأمر بعلم المستشرقين فإننا نصبح أمام معرفة "تقنية" من نوع خاص جدا، معرفة تستخدم فيها جميع الآليات والنظم والمناهج الغربية الحديثة من أجل رد الإسلام إلى ظاهرة "طبيعية" وتحليلها أو تفكيكها أو وعيها في السياق الأوروبي الخاص لأغراض الوعي الأوروبي في ذاته أو في وظيفته العملية والنفعية. وهاهنا يتحول التقويم الإسلامي لعمل المستشرقين من خالص الإقرار بغياب المعرفة أو بالجهل الذي يتلبس الأوروبي العادي إلى مطلق الشك في "النوايا" و"المقاصد" الخفية أو المتبينة التي تنسب إلى أغلب أجنحة الاستشراق".[13] إن رؤية المفكر فهمي جدعان تؤكد إذن، ما قاله المستشرق اسطفان فيلد دفاعا عن المستشرقين الموضوعيين الذين كان شغلهم الشاغل دراسة الإسلام دراسة علمية خالصة في انفصال تام عن أي توجه استعماري أو أيديولوجي.

بناء على هذا،فإنه يلزم التعامل مع علم الاستشراق بمعيار الموضوعية المنفتحة لا الانفعالية المنغلقة، فنأخذ منه ما يخدم مختلف مكونات الحضارة الإسلامية، ولا يتعارض مع هويتنا الثقافية، أو يتضاد وعقيدتنا الدينية. وفي ظل هذه الرؤية تتأتى لنا الاستفادة البناءة من الكثير من الدراسات الاستشراقية، ليس على مستوى المضامين والأفكار فحسب، وإنما على مستوى الآليات والتناول المنهجي كذلك.

---

[12] المرجع نفسه، ص ص 59 و60.

[13] فهمي جدعان، **الماضي في الحاضر، دراسات في تشكلات ومسالك التجربة الفكرية العربية**، ط1 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997)، ص 516.

1- الانشغال المتزايد لعلم الاستشراق المعاصر بالإسلام:

مما لا شك فيه أن السياق العالمي الجديد شهد منذ منتصف القرن الماضي، وبالتحديد منذ تحرّر أغلب بلدان العالم الثالث، العديد من التغيرات التي اعترت مختلف أنساقه الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فلم يكن الاستشراق بمنأى عن ذلك، وإنما كان يحضر بقوة وكثافة في مجريات الأحداث، إن لم نقل بأنه كان، من جهة أولى، طرفا مشاركا في تلك التغيرات العالمية الكبرى، وكان من جهة أخرى شاهدا على أغلب تلك التغيرات، سواء التي كانت موجهة بالتوتر والصراع، أم التي كانت مطبوعة بالتعايش والسلم والتعاون الدولي.

إن هذا الاهتمام المشهود لعلم الاستشراق بالقضايا الحديثة والمعاصرة، يجيب عن سؤال تم طرحه في البداية، وهو يتعلق بمدى استمرارية هذا العلم حديثا، وهل يمكن الحديث عن علم استشراق معاصر. لقد ضمن المفكر إدوارد سعيد كتابه الاستشراق إشارة من الأهمية القصوى بمكان، ورد فيها أن الاستشراق يحيل على"الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. بيد أن الكتب (ما تزال) تكتب، والمؤتمرات تعقد، ومحرقها الرئيسي "الشرق" والسلطة المرجعية فيها المستشرق في قناعه الجديد أو القديم. والنقطة الدالة هي أن الاستشراق، حتى إذا لم يستطع البقاء كما كان ذات يوم، يستمر في الحياة جامعيا عبر معتقداته المذهبية وأطروحاته عن الشرق والشرقي".[14]

من هذا المنطلق، يمكن الحديث عن علم الاستشراق المعاصر، لا سيما في بعده الجامعي والأكاديمي، الذي شهد ازدهارا منقطع النظير، تخلل مختلف صنوف المعرفة والعلم والفكر، فلم يعد يقتصر على المؤسسات الجامعية النخبوية، التي كان لا يرتادها في الماضي إلا رجال الدين ونبلاء القوم، وإنما أصبح مشاعا لجميع شرائح المجتمع، ثم إن هذا العلم لم

[14] إدوارد سعيد، **الاستشراق**، ص 38.

يعد حكرا على بعض الجامعات الغربية العريقة، وإنما صار يُدرس ويبحث في مختلف المؤسسات الجامعية والمراكز البحثية، ويُتناول في شتى المنابر السياسية والإعلامية المطبوعة والمرئية والرقمية، إما من قبل ذوي التخصص من مستشرقين ومستعربين وخبراء سياسيين واقتصاديين ومفكرين، أو من لدن غيرهم من صحافيين وفنانين وأدباء وسينمائيين.

كما تجدر الإشارة إلى أن انشغال الدراسات الاستشراقية الغربية بالعالم العربي والإسلامي، زاد أضعافا مضاعفة عما كان عليه في الماضي، وهذه الزيادة لا تقتصر على ما هو كمي فحسب، من الدراسات والمؤلفات والاتصالات والأسفار والمؤتمرات، وإنما تتعداه إلى ما هو كيفي، يتعلق بجودة تلك الدراسات وموضوعية باحثيها وكتّابها. وهذا الانشغال المضاعف والمكثف بالشرق والإسلام من طرف الدوائر الغربية، يضعنا إزاء سؤال جوهري وهو: ما السّروراء هذا الاهتمام المتزايد للغرب بالإسلام على وجه الخصوص في زمن تولى فيه منطق الاستعمار المادي والعسكري؟

إن تفكيك هذا السؤال يعني البحث السببي في أهم عوامل انشغال علم الاستشراق المعاصر بقضايا الإسلام والمسلمين، وهي تتحدد كما يأتي:

- **الصراع الإسرائيلي العربي/الفلسطيني**: يساهم هذا العامل بشكل كبير في زيادة اهتمام الباحثين والمفكرين والسياسيين والإعلاميين والأدباء الغربيين بالقضايا الإسلامية والعربية، وهذا الاهتمام ما هو إلا جزء لا يتجزأ من الانشغال العام لعلم الاستشراق المعاصر بالإسلام، وهو في الحقيقة انشغال يتراوح بين ثلاثة مواقف استشراقية غربية من هذه القضية (أي: القضية الفلسطينية) وهي: موقف المساندة، موقف المعارضة وموقف التحفظ.
- **الثروة النفطية**: تتوفر المنطقة العربية والإسلامية على حصة الأسد من مجمل الاحتياط النفطي العالمي، ولا يستطيع الإنسان اليوم الاستغناء عن استعمال طاقة النفط، التي أصبحت المحرك الأساس لاقتصاديات العالم، ولمختلف ميادين التصنيع والفلاحة

والتكنولوجيا، وقد ترتب عن هذه الوضعية تضاعف اهتمام الدراسات الغربية بالعالم العربي والإسلامي.

- **هجرة المسلمين إلى الغرب:** كما أن الهجرة الجديدة للمسلمين إلى الغرب، والتي بدأت موجاتها الأولى بعد منتصف القرن الماضي سوف تدفع الدول الغربية التي استهدفتها هذه الهجرة إلى تناول هذه القضية بالدراسة والتحليل، لا سيما وأن أغلب المهاجرين اختاروا الاستقرار الدائم في الغرب، وقد تولدت عن ذلك الكثير من الإشكالات الثقافية والاجتماعية والقانونية التي لم يضعها الغرب في الحسبان، مما دعا الدولة إلى الاستنجاد بالمؤسسات الجامعية والمراكز العلمية قصد تشخيص الوضعية الجديدة، ووضع الحلول المناسبة للإشكالات الناجمة عنها.
- **ظاهرة الخوف من الإسلام:** من بين الإشكالات التي طرأت على المجتمعات الأوروبية والغربية، ما يطلق عليه اليوم في الأدبيات السياسية والإعلامية الغربية ظاهرة الإسلاموفوبيا، التي شدت إليها أنظار العديد من الباحثين والمفكرين، وأسالت مداد الكثير من الكتاب والصحافيين، بل وأُسست مراكز ومراصد تتخصص في متابعة هذه الظاهرة، وما يمت إليها بصلة من قضايا، كالإرهاب والتطرف والعنصرية والكراهية وغير ذلك.
- **مسألة الحوار بين الأديان والثقافات:** ساهمت مرحلة ما بعد الحداثة والعولمة الثقافية في تقارب الشعوب والثقافات والأديان، التي لم تعد تفرق بينها الحدود التقليدية كما كان سائدا قبل بضعة عقود من الزمن، مما يقتضي التعارف بين مختلف شرائح المجتمع الإنساني والتواصل البنّاء بين شتى الأمم والدول، حتى يتسنى لها العيش في تعاون وسلام وطمأنينة. وقد ترتب عن ذلك نشوء رغبة جادة في التحاور والتفاهم والتسامح، تُرجمت في العديد من المبادرات الفكرية والعلمية التي تُنظّر لما صار يعرف بحوار الأديان والثقافات، والتي كانت الجامعة منطلقها الأول؛ حيث تؤلف العديد من الأبحاث، وتعقد شتى اللقاءات، وتطور مختلف الآليات قصد تأهيل الحوار بين الشعوب والأديان وتفادي منطق الصراع والتناحر.

وهذا ما ينطبق كذلك على المشهد الأكاديمي الهولندي الذي يشهد اليوم إقبالا كثيفا على دراسة الإسلام؛ حيث يذهب المرصد الأوروبي لمراقبة الاتجاهات إلى أن هولندا جاءت عام 2011 في المرتبة الثانية بعد سويسرا في حجم المنشورات العلمية، بما معدله 120 مؤلف علمي لكل مائة باحث.[15] وتسجل مؤسسة SIOB، المتخصصة في سوق الكتاب أنه تم عام 2011 بيع أكثر من 45 مليون كتاب ورقي ورقمي على الصعيد الهولندي، يتعلق حول 10% منها بما هو أكاديمي، ثقافي، ديني، فكري وأدبي.[16] ويظهر أن الإسلام أضحى يشكّل اليوم موضوعا أساسيا من الموضوعات التي تعالجها تلك المنشورات.

حقا إن نسبة كبيرة مما يكتب وينشر حول الإسلام في هولندا يظل متأثرا بالانحياز الإيديولوجي والتوظيف السياسي والتضليل الإعلامي، غير أن أغلب المنشورات العلمية تسعى جاهدة إلى التعرف العميق والعقلاني على شريحة المسلمين الذين باتوا يشكلون مكونا ثابتا في المجتمع. ولا يتأتى ذلك التعرف إلا من خلال البحث العلمي الذي يتعمق في شتى قضايا الإسلام الدينية والتاريخية والثقافية والاجتماعية وما إلى ذلك، مما يسهم مع مرور الزمن في تكون صورة ذهنية وواقعية معينة مرهونة بطبيعة المقدمات والمنطلقات التي يرتكز عليها ذلك البحث العلمي.

ترى هل تكتفي المقاربة الأكاديمية الهولندية بهدف التعرف على الإسلام قصد تكوين صورة واقعية حوله أم أنها تتجاوز ذلك إلى أهداف أخرى؟

2- توظيف آلية البحث العلمي لضبط قضايا المسلمين:

إذا كانت الدول الأوروبية التقليدية قد سخرت الكثير من جهود مستشرقيها لأجل اكتساب المعرفة اللازمة حول الشرق عامة، والعالم العربي والإسلامي خاصة، باعتبارهما ليسا موضوع علم الاستشراق فحسب، وإنما بكونهما كذلك الهدف المباشر للأطماع الاستعمارية

[15] Monitor Trends in Beeld, http://www.trendsinbeeld.minocw.nl/grafieken/5_3_3.php

[16] Sectorinstituut Openbaar Bibliotheken, http://www.siob.nl/bibliotheekmonitor/

الأوروبية، فإنها اليوم تنهج المسلك نفسه في التعامل مع الأقليات المسلمة المستقرة في الدول الأوروبية، قصد تأطيرها بشكل منظم في مؤسسات وتنظيمات مرتبطة بمقتضيات الواقع الثقافي واللغوي والقانوني، ومن ثم العمل على إدماجها التدريجي في المجتمع الغربي، وتؤدي المؤسسات الأكاديمية والمراكز البحثية دورا جوهريا في صياغة جوانب مهمة من السياسات الغربية تجاه الأقليات المسلمة التي تعيش في العالم الغربي.

على هذا الأساس، إن علم الاستشراق أصبح يستمر جامعيا وبحثيا، من خلال مختلف الأنشطة، كالكتب والتقارير والأبحاث والمؤتمرات، وهذا لا يعني أنه صار مفصولا عن الغرب الرسمي، وإنما ما يزال مُبطّنا بأطروحاته المسبقة والجاهزة عن الشرق والإسلام، وهذا ما يتضح من خلال مشاريع ومبادرات ودراسات كثير من الجامعات الأوروبية ومراكز البحث العلمي، المتعلقة بقضايا الإسلام والمسلمين، وأغلبها إن لم نقل كلها يمول من قبل الحكومات الغربية أو المؤسسات والشركات المتعاقدة معها، ولذلك فهي تُقدّم بالدرجة الأولى للإجابة عن جملة من الإشكالات والتحديات، التي تواجه الواقع الغربي في علاقته بالأقليات المسلمة والأجنبية.

وهذا لا يعني أن هذه المشاريع العلمية والأكاديمية تعقد ضد الإسلام والمسلمين، بل منها ما يساهم بشكل كبير في التعريف العلمي بالدين الإسلامي، وخدمة قضايا المسلمين الأوروبيين عن طريق تسوية العديد من مشاكلهم القانونية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية، مع الإشارة إلى أن ثمة بعض الحالات الشاذة التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين، والتي يقف وراءها بعض المؤسسات البحثية المؤدلجة، أو زمرة من الباحثين المتحيزين كالمستعرب الهولندي هانس يانسن، كما سوف نرى في المبحث القادم.

يشير آخر إحصاء للمكتب المركزي للإحصاء إلى أن عدد الأجانب غير الغربيين في هولندا، بلغ بداية عام 2012حوالي مليوني نسمة، بنسبة 12% من مجموع سكان هولندا المقدر بـ 16 مليون و700 ألف نسمة، منهم 393 ألف من أصل تركي، و363 ألف من أصل

مغربي[17].حسب تقديرات مؤسسة (FORUM) التي استقتها من المكتب المركزي للإحصاء بلغ عدد المسلمين في هولندا عام 2011ما يقارب950 ألف نسمة بنسبة 6% من إجمالي ساكنة البلد.[18]ويبدو أن هذا الرقم جدير بالاهتمام، بالنظر إلى الرقعة الترابية التي تشغلها المملكة الهولندية والعدد الإجمالي لساكنتها، مما دفع الكثير من الجامعات والمراكز العلمية الهولندية إلى الاشتغال على قضايا المسلمين في هولندا.

إن اهتمام بعض الجامعات الهولندية الرسمية (لايدن، أمستردام، أوتريخت وغيرها) باللغة العربية والدراسات الإسلامية، يحيل مباشرة على التركة الاستشراقية التقليدية؛ إذ كانت أغلب الجهود الأكاديميةتبذل لخدمة الأطماع الاستعمارية والتوسعية، وخير دليل على ذلك جهود المستشرق الهولندي المشهور سنوكهورخرونيو، الذي يعتبر العقل المدبر لسياسة هولندا الاستعمارية تجاه الإسلام، وقد كان مستشارا لكل من الحكومة الهولندية الإندونيسية الاستعمارية ووزير الاستعمار بالعاصمة لاهاي، كما ساهمت أفكارهوتنظيراته في صياغة المواقف الرسمية الهولندية بخصوص الإسلام الطامحة آنذاك إلى نشر الثقافة الغربية في إندونيسيا، وجعل هذه المنطقة الإسلامية تابعة ثقافيا لهولندا. وقصد تحقيق هذا الهدف اتخذ الإسلام مطية، فادعى دخوله في الإسلام واندمج في المجتمع الإندونيسي المسلم.[19]غير أن مثل هذه الحالات الشاذة لا ينبغي أن تحجب كما تمت الإشارة، الدور الإيجابي الذي أدته وتؤديه عديد من الجامعات الهولندية والأوروبية العتيدة في تدريس اللغة العربية ونشرها والتعريف بالدين الإسلامي، وتنتظم فيها زمرة من الباحثين المنصفين والأكاديميين

[17] CBS, *Jaarrapport integratie 2012*, Centraal Bureau voor de Statistiek, Den Haag/Heerlen, 2012, p. 36.

[18] Forum, *Moslims in Nederland 2012*, Forum Verkenning augustus 2012, Uitgave: FORUM - Instituut voor Multiculturele Vraagstukken, p. 8.

[19] Koningsveld, P S (van), *De islam, Een eerste kennismaking met geloofsleer, wet en geschiedenis*, Utrecht: De Ploeg, cop. 1988, p. 118 en 119.

الموضوعيين، الذين صححوا الكثير من الصور النمطية السلبية التي تلصق بالإسلام والمسلمين.

في مقابل ذلك، تتناول المراكز البحثية الهولندية، سواء الجامعية أم المستقلة، بعض قضايا وإشكالات المسلمين، ليس قصد التعريف بها، وإنما قصد المساهمة في إيجاد وصياغة الحلول والبدائل، وغالبا ما تنجز مشاريعها البحثية والاستقصائية والمسحية تلبية لطلبات الجهات الرسمية والحكومية، التي هي في أمس الحاجة إلى جملة من المعطيات والتقارير، التي تؤسس عليها سياساتها بخصوص الأقلية المسلمة، وهي تقدم من خلال ذلك صورة واقعية حول حال الشريحة المسلمة في الغرب بعيدا عن أي تزييف أو مغالطة.

أما أهم مقصد يشغل بال المؤسسات الجامعية والثقافية الإسلامية في هولندا، فيتحدد في البحث عن هوية جديدة للمسلمين في الغرب، توفق بين الانتماء الديني والحضاري إلى الإسلام، والانخراط الواقعي الإيجابي في المجتمعات الأوروبية والغربية. ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق الإجابة العقلانية عن جملة من الأسئلة المصيرية المعقدة، التي لم يعد بمقدور المؤسسات الدينية التقليدية تفكيكها وتفسيرها، وهكذا نشأت الحاجة إلى مؤسسات أكاديمية وعلمية قوية تملك القدرة على المقاربة الواقعية الشمولية لوضعية المسلمين في أوروبا عامة وفي هولندا خاصة.

3- جوانب من صورة الإسلام في المقاربة الأكاديمية الهولندية:

قصد استيعاب أهم مظاهر المقاربة الأكاديمية الهولندية المعاصرة للإسلام، يقتضي المقام بداية البحث في نظرة المستشرقين الهولنديين الأوائل الذين اهتموا بدراسة الدين الإسلامي. يرى المفكر فان كونينسفيلد الخبير في الدراسات الإسلامية أن صورة الإسلام في الفكر الهولندي التقليدي اتخذت ثلاثة مواقف رئيسة:

– **موقف الاستخفاف والتنقيص**: إن علاقة الإسلام مع هولندا كانت تاريخيا محكومة دوما بالنظرة المسيحية إلى هذا الدين، الذي كانت تعتبره تافها ومن صنع الشيطان. وأقدم كتاب يعكس هذه النظرة التحقيرية هو كتاب:**الدليل على حقيقة الدين المسيحي**، الذي ألفه هوخو دي خروت وتم نشره سنة 1622،ويتألف من ستة مجلدات، خص المجلد السادس للحديث عن الإسلام الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم: المحمدية. وقد قام المستشرق الإنجليزي بوكوك بترجمته إلى اللغة العربية. يذكر فان كونينسفيلد أنه عثر على تعقيب للشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد المعمار على هذا الكتاب يعود إلى أواخر القرن الثامن عشر. وقد ورد ذلك التعقيب في طلب وجهه الشيخ إلى أمير البحرين ملتمسا منه نفي النصارى، ونعت فيه صاحب الكتاب (هوخو دي خروت) بأنه مسيحي ضال وجاهل ومتعصب.[20] كماتوصل فان كونينسفيلد إلى أن دي خروت استند في تناوله للإسلام إلى أفكار اللاهوتي الإسباني الكاثوليكي خوان لويس فيفيس، الذي اعتمد هو نفسه على مجموعة نصوص جمعها قس الدير الكلوني في القرن الثاني عشر قصد مواجهة الإسلام. على هذا الأساس فإن دي خروتلملا يرتكز في كتابة هذا المؤلف على نصوص إسلامية أصلية، وإنما على نصوص ثانوية متحيزة كتبت بقلم مسيحي![21]

– **موقف الإنصاف**: أورد الباحث فان كونينسفيلد حالة يتيمة وجدّ استثنائية في الأدبيات الهولندية التقليدية، وهي حالة المستشرق واللاهوتي الأوتريختي أدريان رولاند، الذي نشر عام 1705 باللغة اللاتينية كتابه رسالة **حول دين المحمديين**، وسوف يترجم عام 1718 إلى اللغة الهولندية، وقد اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية من الكتب الممنوعة. يرى أدريان رولاند في هذا الكتاب أنه غالبا ما يتم الحديث عن الإسلام بأسلوب سيء؛ إذ ينبغي تتبع الحقيقة ودراسة ما يقدم حول هذا الدين في المدارس والكنائس؛ حيث الكتاب اللاتينيون ليسوا أكفاء، فهم

[20] Koningsveld, P S (van), *De islam*, p. 115 en 116

[21] Koningsveld, P S (van), *De islam*, p. 115

يحاربون أشباحهم وظلالهم. لذلك على المرء تعلم اللغة العربية، لأنه أفضل له أن يرى بعينيه من أن يظل أعمى. وقد تطرق هذا المستشرق واللاهوتي في الجزء الأول إلى العقيدة الإسلامية والعبادات، في حين خصص الجزء الثاني للرد على أربعين هفوة تتخلل التعامل السيء للمسيحيين مع الإسلام والمسلمين، ويمثل لذلك بالبابا بيوس الثاني الذي ادعى أن المسلمين يجسدون الله، كما أنه فندالموقف المسيحي الذي يقول أن جنة المسلمين مجرد مكان ملئ بالشهوات الجسدية. وما يسترعي النظر أن هذا الكاتب لم ينصف الإسلام من باب الدعاية إليه، وإنما إظهارا للحق والحقيقة لا غير.[22]

– **الموقف الاستعماري**: ويمثله المفكر الهولندي سنوكهورخرونيو الذي يعتبر العقل المخطط لسياسة هولندا الاستعمارية تجاه الإسلام، خصوصاوأن هولندا كانت تأتي في الدرجة الثانية بعد بريطانيا من حيث العدد الذي تستعمره وتحكمه من الناس، إذ كانت تحكم حوالي 35 مليون شخص، ينحدر أغلبهم من الجزر الإندونيسية الإسلامية.مما جعلها في أمس الحاجة إلى سياسة محكمة لإدارة مستعمراتها التي كانت تتشكل من الأغلبية المسلمة. وقد كان سنوك مستشارا لكل من الحكومة الهولندية الإندونيسية الاستعمارية ووزارة الاستعمار في العاصمة لاهاي. ومما لا شك فيه أن كتاباته الأكاديمية ساهمت بقسط وافر في صياغة صورة هولندا إزاء الإسلام؛ حيث سعى حثيثا إلى نشر الثقافة الهولندية الغربية في الجزر الإندونيسية، فتمكن من أن يجعل هذه الدولة الإسلامية تابعة ثقافيا لهولندا. وقبل ذلك، تعمق طويلا في دراسة الإسلام وفهم عقلية المسلمين، بعيدا عن ثقافة الجدل، وفي انفتاح تام على المجتمع الإسلامي، لكن دون المساس بالمصالح الاستعمارية العليا، ما دام أنه كان يعتبر جزءا لا يتجزأ من سياسة المستعمر التي ظل يخدمها ويروج لها. ويقسم فان كونينسفيلد

[22] Koningsveld, P S (van), *De islam*, p. 116 en 117

منشورات سنوك حول الإسلام إلى شقين،أولهما يرتبط بالسياق الزماني وذو طابع سياسي استعماري، وثانيهما بمثابة تحليلات ودراسات ذات طابع علمي خالص.[23]

واليوم يعد المفكر فان كونينسفيلد من المستشرقين القلائل الذين عالجوا الإسلام بحياد علمي وموضوعية تامة يندر نظيرهما، فأنصف بذلك الكثير من القضايا الإسلامية المعاصرة التي هي محط جدل أكاديمي وسياسي عميق داخل هولندا وخارجها. يذهب، في مقدمة الكتاب**أسطورة الخطر الإسلامي** الذي ألفه بمشاركة مع الباحث المسلم واصف شديد، إلى أن المسلمين هم أكثر من يتعرض للضغط في النقاش الدائر حول مسألة الاندماج. فالسياسيون والعلماء وكتاب الأعمدة يبحثون عن أسباب تخلّف الإسلام وعصيانه على التكيف مع التقاليد والقيم الهولندية. ثم إن المسلمين يُنظر إليهم بمثابة طابور خامس يشكل خطرا على المجتمع برمته. مما استدعى تأليف هذا الكتاب الذي يتعرض بالتحليل النقدي إلى مختلف القضايا والمنشورات والقوانين والمواقف إزاء الأجانب والمسلمين.[24]

وقد سجل الباحث أن النقاش على المستوى الهولندي يتجه نحو تقديم الإسلام في صورة عدو، وهذا ما يحيل على رؤية المفكر هانس كونغ السالفة الذكر التي يميز فيها بين مفهومين متضادين هما: "صورة العدو" و"صورة الصديق". فالغرب أصبح اليوم يصور الإسلام بكونه عدوا له، ولا يتم ذلك على مستوى الأفكار والتصورات فحسب، وإنما على مستوى الملاحظة والمشاعر والأحكام المسبقة كذلك. فَانْ كونينسفيلد يثبت أيضا بالأدلة القاطعة هذه الملاحظة، التي يرى أنها غير واقعية وأن صورة العدو هذه هي محض خيال! بل

[23] Koningsveld, P S (van), *De islam*, p. 118 en 119

[24] Koningsveld, P S (van), ed., *De mythe van het islamitische gevaar, Hindernissen bij integratie*, Uitgeverij Kok-Kampen, Nederland, 2e druk 1995, p. 1

وأن الصورة النمطية المنسوجة حول الإسلام تروج لأجل أهداف انتهازية غالبا ما تنبني على أحكام مسبقة.[25]

على المنوال ذاته، يمضي أكاديميون هولنديون آخرون مثل: هانك فروم، ماوريتسبيرخر، مارتين دي كونين، واصف شديد.. وغيرهم، الذين تناولوا الإسلام بشكل علمي خلو من النزوع الأيديولوجي. ولا يمكن في هذا الصدد تجاهل الفيلسوف واللاهوتي المسيحي هانك فروم، الذي يقدم مقاربة علمية موضوعية للإسلام في إطار نظرية التعدد الثقافي؛ حيث المجتمع يتسع لمختلف الأديان والثقافات والمذاهب، التي تتساوى فيما بينها ولا يَفْضُل بعضها البعض الآخر. كما أنه يقوض الصورة النمطية السلبية السائدة لدى العديد من النصارى الذين يرون أنه من السذاجة التعامل باحترام مع الإسلام، لأنه يشكل خطرا على الثقافة الغربية الليبرالية ما دام المسلمون يخضعون لله دون سواه، ولا يعترفون للغير إلا بحقوق محدودة جدا. وبمجرد ما يصبح المسلمون أغلبية سوف تتلاشى حرية الأقليات الأخرى، في الوقت الذي يتمتعون فيه داخل المجتمع الغربي المتعدد الثقافات بمختلف الفرص، التي يتمنى النصارى أن يحققوها مثلا في المملكة العربية السعودية، لذلك فإن الغربيين الذين يثقون في الإسلام يعتبرون سذجا.[26]

سعيا إلى تفكيك هذه النظرة المسيحية الإشكالية إلى المسلمين يفرق هانكفروم بين ما هو محلي وما هو كوني؛ حيثلا ينبغي أن يؤول الإسلام في هولندا أو في الغرب على أساس الإسلام العالمي. بمعنى أن كل طرف مشارك في الحوار يجب أن يوضح مذهبه الإسلامي في انفصال عن الإسلام الكوني، هكذا فإن طرحه يركز في المقام الأول على التعامل الظاهراتي

[25] Koningsveld, P S (van), ed., *De mythe van het islamitische gevaar*, p. 1 en 2

[26] Vroom, Henk, *Plaatsbepaling Christelijk geloof in een seculiere en plurale cultuur*, Uitgeverij Meinema, Zoetermeer, 2006, p. 138

مع التيارات الإسلامية؛ أي أولا كيف تُقدم في الواقع، ثم بعد ذلك كيف ترتبط رؤيتها وممارساتها مع التقاليد الإسلامية السائدة في العالم.[27]

في مقابل هذه المقاربة الأكاديمية الموضوعية والإيجابية لصورة الإسلام تعلو أصوات أكاديمية تتبنى تفسيرا مغايرا يتأسس على نظرية صدام الحضارات كما قدمها صموئيل هنتنغتون، ويأتي المستعرب هانس يانسن على رأس التيار الرافض للإسلام، فهو يقدم صورة قاتمة حول مختلف القضايا الإسلامية، خصوصا في كتابه الغريب الذي عنونه بـ **الإسلام للخنازير، القردة، الحُمُر والوحوش الأخرى**؛ حيث يرى أن غير المسلمين يقدمون في القرآن بكونهم وحوشا؛ خنازير، قردة، حمرا أو "أسوأ ذوات قوائم أربعة"، ثم يذكر أن القرآن أكثر عنفا من الإنجيل، فهو يحض أتباعه على محاربة غير المسلمين. وقد عرف يانسن بمساندته لليميني المتطرف خيرت فيلدرس أثناء محاكمته في أكتوبر 2010 بتهمة التحريض على معاداة المسلمين، وقد اعتبر حينئذ أن ما يروجه فيلدرس حول الإسلام موجود أصلا في القرآن والحديث، وأنه لا يوجد إسلام معتدل وإنما مسلمون معتدلون.[28]

بناء على ما سبق، تتحدد بعض ملامح الصورة التي يقدم بها الإسلام في المقاربة الأكاديمية الهولندية المعاصرة، وهي مقاربة تتخذ ثلاثة أبعاد أساسية: بُعد الإنصاف الموضوعي كما هو الشأن عند فان كونينسفيلد، بُعد التجرد العلمي كما هو سائد لدى هانك فروم، ثم بُعد التحيز الأيديولوجي كما هو الأمر عند هانس يانسن.

ويبدو أن البعدين الأولين هما المهيمنان في المقاربة الأكاديمية، في حين يطغى البعد الأخير أكثر في المقاربتين الإعلامية والسياسية. كيف استثمر المسلمون إذن المواقف الأكاديمية الهولندية والغربية الإيجابية قصد تصحيح صورة الإسلام، التي تنسج بصيغة مغلوطة

[27] Vroom, Henk, *Plaatsbepaling*, p. 119 en 120

[28] FORUM Factsheet, *Het proces-Wilders*, FORUM Instituut voor Multiculturele Vraagstukken, januari 2011, p. 4

في الإعلام والسياسة والواقع؟ إلى أي حد يمكن أن تسهم هذه الجهود الأكاديمية في تحقيق مقصد التعايش السلمي بين المسلمين ومكونات المجتمع الغربي الذي يعيشون فيه؟

خلاصة:

إن الهدف الجوهري من هذه الدراسة هو رصد بعض جوانب المقاربة الأكاديمية الهولندية للإسلام، ومدى إسهامها في إزالة الصور النمطية التي تنسج حول الإسلام في الغرب، وتصحيح الأحكام المسبقة الجاهزة التي تلصق بالمسلمين كافة دون تمييز أو استثناء. وكلما تقلص حجم هذه الصور النمطية السلبية، وتبدد وقع تلك الأحكام المسبقة الجائرة، تقاربت وجهات النظر المتصارعة وتوافرت فرص التعارف والتحاور التلقائي بين مختلف مكونات المجتمع، ومن ثم تحقق مبدأ التعايش السلمي بين شريحة المسلمين وغير المسلمين في الغرب بصفة عامة، على أساس التعاون والإسهام وتبادل المصالح. ومبدأ التبادل هذا، يوظفه الناس في كل مكان من العالم في التعامل في ما بينهم، فهم "يستثمرون في بعضهم البعض، ينفقون الوقت من أجل أن يستمع بعضهم إلى البعض، يساعد بعضهم البعض في الأعمال المنزلية، يهتم بعضهم بالبعض الآخر، غير أنهم ينتظرون من الآخرين أن يعاملوهم بالمثل، ففي كل مكان من العالم ينتظر الناس التعامل بالمثل ممن يقدمون له أي خدمة، ليس دائماً بشكل فوري، لكن على المدى البعيد كذلك".[51]

هكذا تمضي هذه الدراسة من أولها إلى آخرها مسكونة بمسألة الاستفادة المثمرة من الجهود الاستشراقية الغربية القديمة والحديثة بخصوص الإسلام والمسلمين، ليس بغرض تبني أفكارها والدعاية لأهدافها المخفية أو المعلنة، وإنما لأجل الاستيعاب العميق لمواقف بعض المستشرقين والأكاديميين الغربيين والهولنديين، التي تتأسس على الكثير منها سياسات الدول الأوروبية والغربية تجاه العالم الإسلامي. وقد كانت تتسم دوماً بالمواجهة والاستعباد والإقصاء، وتظل الشعوب الغربية عرضة لتلك المواقف، تتأثر بها في نظرتها التنميطية إلى الإسلام والمسلمين.

بالإضافة إلى ذلك، لا مناص من التعمق في الجهود الاستشراقية المعتدلة والمتواضعة – كما رأينا آنفا – التي قوبلت من الواقع الغربي نفسه بالاستغراب والرفض، غير أنها لم تستثمر من قبل المسلمين بكيفية عقلانية وذكية للحد من الحملات الأيديولوجية والإعلامية التي تشن ضدهم. لذلكنلح في هذه الدراسة على الاستثمار العملي للمكاسب الإيجابية التي حققتها المؤسسات الجامعية والبحثية الأوروبية، في تعاطيها مع قضايا الإسلام والمسلمين في هولندا على وجه الخصوص، وهي في الحقيقة متعددة؛ شكلاً ومضموناً، محتوى ومبنى، موضوعات وآليات.